سفارة ألمانيـــــة
إلى بلاط قرطبة
فى عهد عبد الرحمن الناصر
للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كانت أسبانيا المسلمة (الأندلس) قد بلغت ذروة قوتها ؛ وكانت إلى جانب الدول النصرانية الثلاث : الدولة البيزنطيـة ، ومملكة الفرنج ، والامبراطورية الألمانية ، رابعة الدول الأوربية العظمى ؛ بل ربما كانت يومئذ أعظم الدول بما اجتمع لها من عناصر الفتوة ، ومنعة الجانب ، وروعة الملك ، ورفيع الحضارة . كانت حقبة زاهرة ، تعاقب فيها فى قيادة الغرب الإسلامى ثلاثة من أعظم قادة الإسلام وساسته ، هم عبد الرحمن الناصر ، فولده الحكم المستنصر ، ثم الحاجب المنصور . وكان عهد الناصر بلا ريب أسطع هذه العهود وأعظمها ، وفيه بلغت الأندلس ذروة القوة والازدهار ، وفيه قامت الخلافة الأموية فى الغرب قوية موطدة ، بعد أن اختفت من الشرق قبل ذلك بمائة وثمانين عاماً . وكانت قرطبة فى عهد الخلافة الأموية عاصمة الغرب الفكرية والاجتماعية ؛ وكانت فى الطرف الآخر من أوربا تبث أضواء حضارة جديدة لم تلبث أن لعبت دورها العظيم فى تكوين الحضارة الأوربية

وقد تبوأت أسبانيا المسلمة مركزها الدولى فى الغرب . كان بلاط قرطبة يرتبط مع معظم الدول الأوربية بعلائق دبلوماسية منظمة ؛ وكان أخص هذه العلائق مع الدولة البيزنطية فى الشرق ، ومملكة الفرنج فى الغرب . ومنـذ عهد عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الثانى أو الأوسط) نرى سفارات الدول النصرانية تتوالى على بلاط قرطبة ؛ وكان أهم هذه السفارات يومئذ سفارة تيوفيلوس امبراطور قسطنطينية فى سـنة ٢٢٥ هـ (٨٣٦ م) ومقصدها أن تعقد الدولة البيزنطية مع الدولة الأموية تحالفاً على الدولة العباسية ؛ ورد عبد الرحمن على هذه السفارة بأن أرسل وزيره يحيى الغزال سفيراً إلى الامبراطور لينظم بينهما علائق الصداقة والتحالف . وتبادل عبد الرحمن بن الحكم أيضاً السفارة مع ملك النورمانيين عقب الغزوات التى قام بها النورمانيون فى الأندلس ، وانتهت بردهم وهزيمتهم

وفى عهد عبد الرحمن الناصر توالت سفارات الدول النصرانية على بلاط قرطبة ، وكان أشهرها وأهمها سفارة قسطنطين السابع امبراطور قسطنطينية فى شهر صفر سـنة ٣٣٨ هـ (٩٥٠ م) . وتقدم إلينا الرواية الإسلامية وصفاً شائقاً لتلك السفارة الشهيرة ، وتصف لنا احتفال الناصر باستقبالهم فى أروع المظاهر والرسوم ، وتنقل إلينا أقوال الخطباء المسلمين فى ذلك الحفل الباهر

* * *

وفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٦ م) وفدت على الناصر سفارة من أوتو الكبير امبراطور ألمانيا ؛ وكان يومئذ أعظم أمراء النصرانية كما كان الناصر أعظم أمراء الإسلام . وكان بين الملكين العظيمين علائق ومراسلات منتظمة ، بيد أنها لم تكن ودية دائماً . ولا تحدثنا الرواية الإسلامية عن سفارة أوتو (أو أوتون) إلى الناصر بأكثر من الإشارة إليها ؛ بيد أنها كانت سفارة هامة ، وكانت ذات غاية خاصـة وذات مغزى خاص . وكان سفير الامبراطور إلى الخليفة حبرا من أكابر الأحبار هو يوحنا أسقف جورتسى . وترك لنا يوحنا تفاصيل سفارته فى ترجمة حياته (Vita) وخلاصتها أنه سار إلى قرطبة ليسعى لدى الناصر فى أمر المستعمرات والعصابات المسلمة التى انتشرت فى أنحاء سافوا ، وفى كثير من آكام الألب . وكانت غزواتها الناهبة تمتد حتى شمال سويسرة ، وكان أمراء النصرانية التى تهدد هـذه المستعمرات أملاكهم ورعاياهم قد فزعوا إلى الامبراطور أوتو باعتباره زعيم النصرانية وأقوى أمرائها ، وطلبوا منـه أن يتوسط لدى خليفة المسلمين عبد الرحمن الناصر فيستعمل نفوذه السياسى والروحى لإجلاء هذه المستعمرات عن معاقلها أو على الأقل لوقف اعتدائها وعبثها . فنزل الإمبراطور عند تضرعهم وبعث سفيره إلى الناصر ، فقصد يوحنا إلى قرطبة عن طريق فرنسا ، ومعه طائفة من التحف والهدايا طبقاً لرسوم العصر . ولما وصل إلى دار الخلافة استقبل بحفاوة كبيرة ، وأنزل فى منزل خاص ؛ ولكنه لم يقدم إلى الناصر فى الحال ، بل استبقى مدى حين فى شبه اعتقال محوطا بالاكرام والرعاية ؛

ويوضح لنا يوحنا بواعث هـذا الاعتقال فيقول لنا : ان الخليفة كان يحقد على الامبراطور لأنه كان قد تعرض للاسلام في بعض كتبه إلى الناصر، واعتقل مدى حين سفيراً نصرانياً كان الناصر قد أوفده إلى بلاطه ، فرأي أن يقابل تصرف الامبراطور بمثله ، ويعتقل سفيره أعني يوحنا حتى يتحقق من عواطفه ونياته . وبعث الناصر إلى الامبراطور سفيراً ، واختار لهذه السفارة قسًّا من رعاياه النصارى اتباعاً لتقليد جرى عليه الخلفاء فى معظم سفاراتهم إلى القصور النصرانية . وكان اوتو يومئذ مشتغلا ببعض الحروب الداخلية ، فأبدى تساهلا فى قبول وجهات نظر الخليفة ، ولم يثر من المجادلات مااعتاد أن يثيره ، وأكد صداقته لخليفة المسلمين . وعاد السفير إلى قرطبة يحمل إلى الناصر تحيات اوتو وتأكيداته الودية ، فارتاح الناصر لهـذه النتيجة ، وأذن باستقبال يوحنا سفير الامبراطور . واستقبل يوحنا استقبالا فخما ظهرت فيه عظمة البلاط الأموى ، وتحدث إلى الناصر عن مهمته وغاية سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة ، لأن يوحنا لم يحدثنا عن ذلك فى روايته ؛ ولـكن المرجح أن وجهة النظر التى أبدتها حكومة قرطبة هى أنها ليست لهـا أية علاقة بالمستعمرات العربية فى غاليس وسويسرة ، وانها لا تتحمل تبعة أعمالها ، ولا تستطيع أن تتدخل لديها . وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة قرطبة لم تكن تعنى كثيراً بشأنها ، وإن كانت بلا ريب تنظر إلى غزواتها فى الأراضى النصرانية بعين العطف والتأييد

على أن الرواية الـكنسية من جهة أخرى تحدثنا عما أفضى به الناصر إلى يوحنا من الملاحظات السياسية والادارية ؛ فقد بسط ليوحنا خططه فى السياسة العامة ، وأنحى باللائمة على الامبراطور أوتو لأنه يضع ثقته فى أشرافه ؛ ومثل هذه السياسة لا تزيد الاشراف إلا غروراً ، ثم تنتهى بهم فى أواخر الأمر إلى العصيان والثورة . ولهذه الملاحظة السياسية التى توردها الرواية الـكنسية عن الناصر أهمية خاصة ، وهي ليست إلا صدى لسياسة الخلافة الأموية وسياسة الناصر ذاته ؛ ذلك أن الناصر كان يعتمد فى تنفيذ سياسته على طبقة الموالى والصقالبة ، ولا يثق بالاشراف وزعماء القبائل من العرب . وكان من آثار هـذه السياسة أن جعل الناصر بطانته من الصقالبة المستعربين ، ورفع كثيراً منهم إلى مناصب النفوذ والثقة فى الحـكومة وفى الجيش . وكان الناصر يخشى منافسة الرؤساء ذوى العصبية ويقصيهم عن كل نفوذ ، ويخضعهم لهؤلاء الصقالبة الذين اتخذهم فى يده آلات طائعة تعبر عن خططه ورغباته . وكان لهذه السياسة أثرها فى توطيد سلطان العرش ، والقضاء على سلطة الزعماء المحليين ، وعلى مطامع الرؤساء المتطلعين ، ولـكنها كانت من جهة أخرى خطراً على العرش إذ عرضته لسخط الأشراف والزعماء العرب ، وخطراً على الجيش إذ كان سواد ضباطه من العرب الذين يعتزون بعصبيتهم ويسوءهم أن تضار هذه العصبية ويعتدى عليها . وظهر أثر هذه السياسة فى أواخر حكم الناصر إذ ظهرت أعراض الوهن والانحلال فى الجيش ؛ ثم ظهر خطرها على العرش فيما بعد إذ غدا عرضة لمطامع المتغلبين والمتنافسين

* * *

تلك هى قصة هذه السفارة الشهيرة التى وجهها الإمبراطور أوتو الـكبير إلى عبد الرحمن الناصر ، وتشير الرواية الاسلامية إليها فى عبارات موجزة[1] مما يدل على أنها لم تفطن إلى أهميتها السياسية والاجتماعية ، ذلك لأنها كانت سفارة من نوع خاص ، ولم تكن متعلقة بالشئون والعلائق الدبلوماسية العامة ، ولم تكن الإمبراطورية الألمانية الناشئة مشهورة فى بلاط قرطبة شهرة الدولة البيزنطية أو مملكة الفرنج ، ولـكن التفاصيل الشائقة التى تقدمها إلينا الرواية الـكنسية تدلى بأهميتها وطرافتها ، وأول ما تدل عليه ما كان لبلاط قرطبة فى عهد الناصر من الهيبة والنفوذ حتى فى دول كألمانيا لم تكن تربطها بالأندلس مصالح أو علائق دبلوماسية مباشرة ؛ بيد أن أهم ما تدلى به هذه السفارة هو صفة الزعامة والارشاد التى كان يبدو بها بلاط قرطبة ، فقد رأينا الناصر يلقى درساً فى السياسة والادارة على الأمبراطور أوتو ، وهي صفة كان فى ظروف الأندلس يومئذ ما يبرر اتخاذها ، فقد كانت الأندلس عندئذ فى أوج قوتها وعظمتها ، وكانت حكومة قرطبة فى نظمها السياسية والادارية والاجتماعية نموذجاً لأعظم

(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٧١ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤